• دريافت ۱۴۰۱/۰۴/۲۲
• تأييد ۱۴۰۱/۰۸/۰۳

نقد نظرية السَّكاكيّ و مَن تَبِعَه و مناقشتها في تفسير القصر في الآية الرابعة و الاربعين بعد المئة من سورة آل عمران

قال تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا...) إلى قوله تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران/١٤٦-١٤٤)

محمد إبراهيم خليفه شوشترى*

الملخص

إنَّ عنوان هذه المقالة هو (نقد ومناقشة) والمقصود بالنقد و المناقشة هو أبو يعقوب السكاكي المتوفى سنة (٦٢٦ه)، صاحب كتاب مفتاح العلوم وهو أحد علماء البلاغة البارزين، والسبب الذي دفعني لنقده ومناقشته وهو رأيه في تأويل القصر في قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) (آل عمران/١٤٤) حيث قال: " ومن الوارد في التنزيل على قصر الإفراد قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ)؛ فمعناه محمدٌ مقصورٌ على الرسالة لايتجاوزها إلى البُعد عن الهلاك. نُزِّلَ المخاطبُونَ لِاستعظامهم أنْ لايبقى لهم منزلَ المُبعِدينَ لِهلاكِهِ. (السكاكي، ١٩٨٣: ٢٨٩)

وهذا الكلام معناه أنَّ السكاكي نسب إلى الله تعالى أنه هو الذي نَزَّلَ الصحابةَ منزلةَ المعتقدين بأنّ الرسولَ الأعظمَ «ص» خالدٌ لذلك قصرَهُ اللهُ تعالى على الرسالة، ونفى عنه الخلودَ، وقد تبعه في هذا الرأي بحسب اطلاعي جميعُ علماءِ البلاغة الذين جاءوا بعده إلى يومنا هذا، وإنني حين دَقَّقْتُ النظر في رأيه هذا وجدتُ أنَّ نقدَهُ و مناقشَتَهُ وإعطاءَ الرأى الصحيح أمرٌ ضروريٌّ ومهمٌ جداً؛ لأنّ هذا التأويل وهذا التفسير يرتبط ارتباطاً وثيقاً ومباشراً بتفسير الآيات القرآنية التي من جملتها هذا القصرُ، وبفهمها فهماً مدعوماً بالأدلة المحكمة أيضاً علماً بأنَّ السكاكي حين نَسَبَ ذلك إلى الله -تعالى- نسبه بضرس قاطع، ولم¬يُتبِعْهُ بجملةٍ مثل هذه الجملة: (والله -تعالى- أعلمُ). وإنَّ الذي عملتُه هو أنّي نظرتُ إلى هذا القصر من زاويةٍ أخرى هي أقربُ إلى حقيقة الأمر مستنداً في ذلك إلى سبب النزول، و إلى علم المعاني و إلى الواقع التاريخي لذلك ناقشتُ رأيَهُ من الجهات الأربع التالية: شأن النزول، والصفات التي نفاها هذا القصر، والمقام والاعتبار المناسب، وارتباط البحث البلاغي في القرآن الكريم بالتفسير.

وكان من النتائج التي توصلتُ إليها أنَّ اللهَ تعالى لم¬يُنَزِّلِ الصحابةَ منزلةَ المعتقدين بخلود الرسول الأكرم «ص» وأنَّ نسبة ذلك إليه -تعالى- دون دليل إنما هي عملية تأويلية لعلَّ المرادَ منها إخضاعُ الآية للقاعدة البلاغية وأهم النتائج أنَّ الصفات التي نفاها هذا القصر هي: السحر والجنون والكذب (ادّعاءُ النُّبُوَّةِ) وليست هي الخلودَ.

وإني لم¬أَرَ- بحسب إطلاعي- مَن ناقش رأىَ السكاكي هذا و نَقَدَهُ وأعطىٰ الرأيَ البَديلَ المدعمَ بالدليل قبلي.

الكلمات الرئيسة: نقد و مناقشة، نظرية السّكاكيّ، الآية و الرابعة والاربعون بعد المئة من سورة آل عمران، القصر

* أستاذ قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد بهشتى m-khalifeh@sbu.ac.ir

مقدمه

قال تعالى: (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) (يوسف/٧٦) قال الطبرسي مُفسراً هذه العبارة المباركة: «يعني: إنَّ كلَّ عالم فإنَّ فَوقَه عالِماً منه حتى ينتهي إلى الله ـتعالىـ العالم بِجميعِ المعلوماتِ لِذاتهِ، فيقف عليه ولايَتعَدّاهُ... ».(طبرسي، ١٩٨٨، ج٥: ٣٨٧) و نفهمُ من ذلك الأمرين التاليين: الأول: نقص البشر و نقص علومهم والثاني: أَنه لانهايةَ للعلم و طَلَبِهِ، قال تعالى: (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) (البقره/ ٢٥٥)، قال تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (الإسراء/٨٥) و لاشَكّ أننا أُمرنا بطلب العلم مازِلنا على قَيدِ الحياة قادرينَ على ذلك.

يقول مَنْ تَقرَعُ أسماعَهُ كم تَرَكَ الأوّلُ للآخِرِ

(أبوتمام، ٢٠٠٧،ج١: ٣١٥)

لذلك نرى كلَّ جِيلٍ مِنَ العلماءِ اللاحقينَ يَسْتَفيدُ مِنْ بُحُوثِ الجَيلِ السابقِ ويَعملُ على تكميلها، وإضافةِ بحوثٍ جديدةٍ، وتَصحيح ما وَقَعَ فيه السابقون من السهو والخطأ و غير ذلك، وتتكرَّرُ هذه العلميةُ في كلِّ جيل لاحقٍ، وقديماً قيل: «لِكُلِّ صارِمٍ نَبْوَةٌ، ولِكُلِّ جَوادٍ كَبْوَةٌ، ولِكلِّ عالمٍ هَفْوَةٌ» (الميداني، ١٩٩٢: ج٢: ١٨٧)، و إذا أردتَ أنْ تكونَ واحداً من الذين يَحظَوْنَ بشئٍ مماتركَ الأولُ للآخر، فماعليك إلا أنْ¬تُدقِقَ النظرَ في كلِّ كلمةٍ تقرؤها، وأنْ تعطيهاحقَّها من التأمُّلِ والتفكّر والتَّرَيُّث، وإذا اقتضى الأمرُ فاعْرِضْ ذلك على كلام مَن صّحَّ علمُه، وبذلك تكونُ قدأَدَّيتَ دَورَكَ، وعَصَمْتَ نفسك عنْ أنْ تفهمَ النَّصَّ على غير وَجهِهِ الصحيح، أو أنْ¬تعتقدَ رأياً غيرَ ناضِجٍ أو سهواً وَقعَ فيه مَن سَبَقَكَ، وبذلك تكونُ قدأَهلْتَ نَفْسَكَ لكي تحظىٰ بشئ مماتركَ الأولُ للآخر، فالأمر ليس سهلاً، ولعلَّ دون ذلك خَرْطُ القَتادِ.(الميداني،١٩٩٢،ج١: ٤٦٧؛ لسان العرب: مادة (خرط) مثلٌ يُضرَبُ للأمر دونه مانعٌ.)

والمهم بما أنّي مشغولٌ بتأليف كتابٍ في علم المعاني لذلك بدأتُ أُطالعُ الكتبَ القديمةَ لعلماء البلاغة ابتداءاً بعبد القاهر الجرجانِي و مَن جاء بعده كالزمخشريّ و فخر

الدين الرازيّ والسّكاكيّ والخطيب القزوينيّ والطّيّبيّ وبهاءالدين السُّبكيّ والبابرتيّ وعصام الدين الحنفيّ وابن يعقوب المغربيّ، و انتهاءاً بالدارسين المعاصرين الذين لم¬يَدرسِ القصرَ في هذه الآيةِ إلّا قليلٌ منهم، نعم و حينما وصلتُ إلى موضوع القصر بدأتُ كالعادة بمطالعة المصادر القديمة ولَمّا وصلتُ إلى مفتاح العلوم لفتَ نَظَري رأيٌ اعتقدَهُ السّكاكيّ في تفسيره القصرَ في قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...) (آل عمران/١٤٤) لأنّي لم أجدْ من معاصريه و سابقيه ولاحقيه مَن درسَ القصرَ في هذه الآيةِ دراسةً بلاغية، فهو بحسب اطلاعي على ما توفّر لَدَيَّ من مصادر أولُ عالم فسّرَ هذا القصر بلاغياً و أعطىٰ فيه رأياً تبعه فيه مَن جاء بعده حيث تلَقّوا تفسيرَه هذا بالقبول وأخذوا يكرِّرُونَ عباراتِه، ولم¬يُناقِشُوه في أصل تفسيره بل ناقشه الطيبي و تبعه بهاءُ الدين السّبكيّ وابنُ يعقوب المغربيّ، وذلك في مسألة فرعية هي أنَّ هذا القصر هو قصرُ قلب وليس قصرَ إفراد كما اعتقده السّكاكيّ. لكنَّ هذا خارج عن بحثنا هذا.

لذلك بدأتُ أقرأ، ولَمَّا انتهيتُ من قراءتي لتحليله قصر هذه الآيةِ الكريمة تحليلاً بلاغياً، شعرتُ أنَّ تفسيرَهُ هذا يحتاجُ إلى إعادةِ نظرٍ، فأعدتُ النظرَ فيه بإمعانٍ، ثم رَجَعْتُ إلى ما كتبه عبدالقاهر الجرجاني حول قصر الموصوف على الصفة، وبعد تأمل طويل انتهيتُ إلى أنَّ تفسيرَ السَّكاكيّ هذا يحتاجُ إلى نقد ومناقشة فعقدتُ العزمَ وتوكلتُ على الله_تعالى_ وكتبت هذه المقالة راجياً أنْ لايُجانِبني الصَّوابُ.

وقداعتمدتُ في مناقشتي هذه على الأسس الأربعة التالية:

الأول: شأن النزول والثاني: الصفات التي نفاها هذا القصر والثالث: المقام والاعتبار المناسب والرابع: ارتباط البحث البلاغي في القرآن الكريم بالتفسير.

مدخل: إنني قلتُ في المقدمة: إنَّ السكاكي بحسب اطلاعي على ما توفر لديَّ من مصادر هو أول عالم درس القصر في هذه الآية الكريمة و فسَّره تفسيراً بلاغياً و أعطى فيه رأياً وافقه فيه مَنْ جاءَ بعده كالخطيب القزويني و الطيبي وبهاء الدين السبكي والبابرتي وسعدالدين التفتازاني وعصام الدين الحنفي وأبي العباس ابن يعقوب المغربي

وغيرهم؛ ثم سار الدارسون المعاصرونَ على هذا النهج حيث وافق جميعُ هولاء السّكاكيَّ في رأيه في تفسير النفي والإثبات الحاصل من هذا القصر و في المقام و الاعتبار المناسب. لكنهم جميعاً لم يُصَرِّحوا بسبب نزول هذه الآية الكريمة و إنَّ الذي نُريدُ أنْ نبحثَهُ لِنتعرَّفَ عليه الأمورُ الأربعة التي ذكرناها قبل قليل.

لذلك أذكر فيما يلي نصَّ السَّكاكيّ وأتلوه بنصوص بعض مَن تبعه من القدما والمعاصرين؛ ثم أبدأ بمناقشتهم في الرأي الذي تَبَنَّوهُ. و بعد ذلك أشرح الرأيَ الذي توصلتُ إليه مستنداً إلى رأي عبدالقاهر الجرجاني في قصر الموصوف على الصفة علماً بأنَّ عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١ه) لم¬يبحث هذه الآية في كتابيهِ: دلائل الاعجاز و أسرار البلاغية، وكذلك فخرالدين الرازي (٦٠٦ه) لم¬يذكر القصر في هذه الآية الكريمة في كتابيه: نهاية الإيجاز في دراية الاعجاز والتفسيرالكبير، أما الزمخشري (٥٢٨) فهو أيضاً لم¬يُفسّر القصر فيها ولم¬يشرحه بلاغياً.

والجدير بالذكر أنَّ الدافعَ أو المبَرِّرَ لِذكر نصوصِ علماء البلاغة ينحصرُ في سببين هما: الأول: أنْ أشرحَها شرحاً مختصراً والثَّاني: أنْ أُسَهِّلَ على القارئ الكريم الاطلاعَ عليها، و أُوَفِّرَ عليه مراجعةَ مصادرها؛ لأنه يجدُ هذه النصوصَ حاضرةً أمامَهُ.

وفيما يلي نَصُّ السكاكي، و نصوصُ بعض تابعيه قديماً وحديثاً:

قال السكاكي (٦٢٦ه): «ومن الوارد في التنزيل على قصر الإفراد قولُهُ تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) (آل عمران/١٤٤)، فمعناه: محمدٌ مقصورٌ على الرسالة لايتجاوزها إلى البعد عن الهلاك، نُزِّلَ المخاطبونَ لاستعظامهم أنْ لايبقى لَهُمْ منزلَ المبعِدينَ لهلاكِهِ».(السكاكي، ١٩٨٣: ٢٨٩).

إنَّ معنى كلام السكاكي هو أنَّ قصرَ الإفراد هنا يعني أنَّ الصحابة اعتقدوا أنّ الرسول الأكرم «ص» موصوف بالرسالة و الخلود معاً؛ أي: إنهم اعتقدوا باشتراك هاتين الصفتين في موصوف واحد هو الرسول الأعظم «ص» لذلك جاء القصر لينفي الخلود عنه «ص» و يُثبتَ الرسالةَ بمفردها له «ص»، أي: لِيثبتَ أنه «ص» رسول الله حقاً

وصدقاً فالمنفي هو الخلود. و سنرى أنَّ بعض العلماء كالسَّبكي اعتقدوا أنَّ القصر هنا هو قصر قلب. و ليس قصر إفراد، فخالفوا السكاكي في هذا المورد، و وافقوه في كون المنفي هو الخلود، و مناقشتي للسكاكي تنحصرُ في اعتقاده أنَّ المنفيَّ هو الخلودُ.

وقال الخطيب القزويني (٧٣٩ه): «(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)(آل عمران/١٤٤)؛ أي: إنّه _صلّى الله عليه و سلَّم_ مقصور على الرسالة لايتعداها إلى التَّبَرّي من الهلاك نُزِّلَ استعظامُهُمْ هَلاكَهُ مَنزلةَ إنكارِهم إيّاهُ». (الخطيب القزويني، ١٩٩٣: ١٢٨) أي: منزلةَ إنكارهم هلاكَهُ، و واضحٌ أنَّ كلامَ الخطيب القزويني هو تكرارٌ لكلام السكاكي، فالمنفيُّ في هذا القصر هو الخلودُ الذي عبَّر عنه بالتَّبَرّي من الهلاك.

وقال شرف الدِّين الطَّيِّبيّ (٧٤٣ه): «ومِن الإفراد في التنزيل: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) (آل عمران/١٤٤)؛أي: هو _صلوات اللّه عليه_ مقصور على الرسالة لايتجاوزها إلى عدم الهلاك. كأنهم أثبتُوا له الرسالةَ و الخُلْدَ». (الطَّيِّبيّ،١٩٨٧: ١٢٥؛ الطَّيِّبيّ، ١٩٩١: ٧٨)

وهذا الكلامُ أيضاً هو تكرارٌ لكلام السكاكيّ و اعتقاده بأنَّ المنفيَّ هو الخلودُ. و قال بهاء الدين السُّبكيّ (٧٧٣ه): «(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) فانّه خطابٌ للصحابة و هم لم يكونوا يجهلون رسالة النَّبيّ إلّا أنّه نُزِّلَ استعظامُهُم له على الموت تنزيلَ من يجهلُ رسالتَهُ؛ لأنّ كلّ رسول لابد من موته، فمن استبعد موته فكأنه استبعد رسالته و هذا هو الصوابُ و به يَظهرُ أنَّ هذا قصرُ قلبٍ لاقصرُ إفرادٍ فإنَّ اعتقادَ الرسالة و عدمَ الموت لايجتمعان و إنكارُهمُ الموتَ ينفي أنْ¬يجتمع معه الإقرارُ بالرسالة حتى¬يكونَ قصرَ إفرادٍ».(السبكيّ، ٢٠٠٣، ج١: ٤١٠)

شرح كلام السبكيّ:

إنَّ معنى كلام السبكيّ هو أنَّ الصحابةَ لَمّا استبعدوا موتَ الرسول الأعظم «ص»

فكأنهم لم يعتقدوا ولم يُقِرُّوا بأنَّ محمداً «ص» رسـولُ الله حقّاً و صـدقاً بل اعتقدوا أنه خالدٌ. لذلك جاء القصرُ لِيَقلبَ هذا الاعتقادَ و لِيَقولَ: إنّه «ص» رسول الله حقاً و صدقاً و أنه «ص» ليس بخالد، فأثبتَ له الرسـالةَ و نفى عنه الخلودَ و هذا هو معنى قول السبكيّ: (إنَّ هذا قصرُ قلب لا قصرُ إفرادٍ) فالسبكي وافقَ السكاكي في أنَّ المنفيَّ هو الخلودُ. لكنه خالفه في نوع القصر إذ اعتبره قصر قلب و ليس بقصر إفراد و دليلُهُ أنَّ اعتقاد الرسالة و عدم الموت لايجتمعان ولايشتركان في موصوف واحد؛ لأنَّ إنكارَ الموت لايجتمع معه الإقرارُ بالرسالة، فحينَ استبعدَ الصحابة موتَ الرسول الاَكرم «ص» صاروا كأنهم استبعَدوا كونَهُ رسول الله حقّاً و صدقاً، وكأنهم لم يُقِرُّوا برسالته إذن فكأنَّ الصحابةَ لم يعتقدوا بأنه «ص» رسـولُ الله. بل اعتقدوا أنّه خالدٌ؛ أي: إنّهم اعتقدوا عكسَ الصفة التي ذكرتها الآيةُ الكريمة، يعني: إنهم اعتقدوا عكسَ كونه رسـولاً، فكأنهم اعتقدوا بحكم هذه الجملة: (ما محمدٌ إلّا خالدٌ) لذلك جاء القصـرُ ليقلبَ هذا الحكمَ ولِيقولَ: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) (اَل عمران/ ١٤٤) لاخالدٌ.

وقال أكملُ الدين البابرتي (٧٨٦ه): «(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُـولٌ) (اَل عمران/ ١٤٤)؛ أي: مقصورٌ على الرسالةِ لايتعَدَّاها؛ أي: لايتجاوزها إلى التّبَرُّؤِ من الهلاك، نزَّل الله- سبحانه وتعالى- استعظامَ المؤمنينَ هلاكَ رسوله-عليه الصلاة و السلامُ- منزلةَ إنكارهم إياه». (دويدري، ١٩٧٠: ٣٣٧) واضح أنَّ هذا تكرارٌ لكلام السكاكيّ و اعتقادٌ بأنّ المنفيَّ هو الخلودُ.

وقال سَعدُ الدين التفتازانيّ (٧٩١ه): «(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) (اَل عمران/ ١٤٤)؛ أي: مقصورٌ على الرسالة لايتعدّاها إلى التَّبَرِّي من الهلاك، فالمخاطبونَ وهُمُ الصحابةُ رضى الله عنهم، كانوا عالمينَ بكونه مقصوراً على الرسالة غير جامع بين الرسالةِ و التَّبَرِّي من الهلاك. لكنهم لَمّا كانوا يَعُدُّون هلاكَهُ أمراً عظيماً نُزِّلَ استِعظامُهُمْ هَلاكَهُ منزلةَ إنكارِهِمُ الهلاكَ». (التفتازاني، بلاتا، ج١: ١٩٤)

شرح كلام التفتازاني

إنَّ كلام التفتازاني هذا هو تكرارٌ لكلام السـكاكي؛ لأنَّ معنى قوله: (لكنهم لَمّا كانوا يَعُدُّونَ هلاكَهُ أمراً عظيماً نُزِّلَ اسـتعظامُهُم هلاكَه منزلةَ إنكارهمُ الهلاكَ) هو أَنَّ الصـحابةَ جمعوا في النَّبيّ «ص» صـفتين هما: الرسـالة والخلود، فجاء القصـر لِيُثبتَ الرسـالةَ له «ص» و ينفي عنه «ص» الخلودَ؛ أي: جاء القصـر لِيبطلَ اشـتراكَ هاتين الصفتين (الرسالة و الخلود) في موصوف واحد هو الرسول الأعظم «ص». و هذا يعني أنَّ التفتازاني اعتقدَ أنَّ نوعَ القصر هو قصرُ الإفراد الذي أبطله بهاء الدين السبكيّ في نصه المتقدم. والمهم أنَّ التفتازاني اعتقد أنَّ المنفيَّ هو الخلودُ.

وقال عصـام الدين الحنفيّ (٩٤٣ه): «والأقرب عندي أنه قصـر قلب أي: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُـولٌ، لاإلهٌ)؛ نُزِّلَ اسـتعظامهم هلاكه منزلة دعوى أُلُوهِيَّتِهِ: لأنَّ البقاءَ يَخُصُّ الإلهَ: (كُلُّ شَـيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)(قصـص/٨٨)، و اعتقادُ الأُلُوهِيَّة يُنافي الرسالةَ». (الحنفي، ٢٠٠١: ٥٥٩)

شرح كلام عصام الدين الحنفي:

إنَّ الحنفي وافق السبكي في كون القصر قصرَ قلب.لكنه خالفه في تفسير هذا القصر؛ لأنَّ السبكي فسّرَ قصرَ القلب هنا بأنَّ استعظامَ الصحابة هلاكَه «ص» نُزِّلَ منزلةَ عدم الاعتقاد بأنّه رسول الله، لذلك فاعتقادهم بأنّه خالدٌ يُنافي كونه رسولَ الله، فجاءَ القصرُ ليقلبَ ذلك. أمّا الحنفي ففسَّـرَ قصـرَ القلب هنا بأنَّ اسـتعظام الصـحابة هلاكَه «ص» نُزِّلَ منزلةَ ادّعاءِ أُلوهِيَّةِ الرسـولِ، لذلك فاعتقادُ أنّه إلهٌ يُنافي كونَه رسـولَ اللَّه. فجاءَ القصرُ ليقلبَ هذا الاعتقادَ.

إذن فكأنَّ الصحابةَ لم يعتقدوا بأنه «ص» رسولُ اللهِ. بل اعتقدوا أنه هو الإلهُ؛ أي: إنهم اعتقدوا عكسَ الصـفة التي ذكرتْها الآيةُ الكريمةُ يعني: إنهم اعتقدوا عكسَ كونه رسولاً و بعبارة أوضح: إنهم كأنهم اعتقدوا بحكم هذه الجملة: (ما محمدٌ إِلَّا إلهٌ) لذلك

جاء القصرُ لِيقلبَ هذا الحكمَ و لِيقولَ: (ما محمدٌ إلَّا رسولٌ) لا إلهٌ.

والمهم أنَّ عصام الدين الحنفيّ اعتقد أنَّ هذا القصرَ أثبتَ لمحمد «ص» أنه رسولُ الله حقاً و صدقاً، و نفى عنه أنْ يكونَ إلهاً، فعصام الدين خالف السكاكي في أمرين: الأول نوع القصر و الثاني نوع التنزيل؛ لأنّه قال: (نُزِّلَ استعظامُهُم هلاكَه منزلة دعوى أُلُوهِيَّتِهِ) أما السكاكي فقد قال: (نُزِّلَ المخاطبونَ لاستعظامهم أنْ¬لايبقى لهم منزلَ المبْعِدِينَ لِهلاكِه). فالمنفيّ عند عصام الدين الحنفيّ ليسَ الخلودَ بل هو دعوىٰ أُلُوهيَّتِه «ص»)

و قال أبوالعباس بن يعقوب المغربي (١١٢٨ه): «أصل التنزيل تشبيه الشئ بالشئ، فلما شُبِّهُوا بالنافي في ذلك ناسبَ تنزيلهم منزلةَ المنكرين، فخوطبوا بردّ الانكار. للاعتبار المناسب، و هو الإشعار بأنهم في غاية الاستعظام و غاية الحرص الذي يُنَزَّلونَ فيه منزلة المنكرين، و أنهم بحيث يُخاطبون بهذا الخطاب التنزيلي ردّاً لهم عمّا عسىٰ أن يَنْبَني على ذلك الاستعظام ممّا ينبني على نفي المستَعظَم و قد وقع من بعضهم ذلك البناءُ حتى أنكر الوفاةَ (أي: أنكروا وفاة النبي «ص») يومَها (أي: يومَ وفاةِ النبي «ص»)، و شغلهُ ذلك الإنكارُ عمّا يقتضيه الحالُ من الشُّغلِ بإقامةِ الدين من بعدهِ - صلّى الله عليه و سلَّم - و كان يقولُ (القائل هو عمربن الخطاب): والله لا أسمعُ رجلاً قال: ماتَ رسولُ الله - صلّى الله¬عليه و سلَّمَ- إلّا فعلتُ به كذا و كذا...». (المغربي، ٢٠٠٣، ج١: ٤٤٦-٤٤٥)

والمهم أنَّ النفي بهذاالقصر عند السكاكي و جميع تابعيه هو الخلود باستثناء عصام الدين الحنفي. أما الدارسون المعاصرون فأكثرهم قلّد السكاكي و بعضهم لم¬يذكر هذه الأية الكريمة، و منهم ذكرها دون أن يشرحها شرحاً بلاغياً، و فيما يلي أذكر أهمَّ مُقلِّدي السكاكي:

١-قال عبد المتعالِ الصعيدي: «... قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) (آل عمران/١٤٤)؛ فالمعنى على أنه مقصور على الرسالة لايتعدّاها إلى

التَّبَرّي من الهلاك، وقد نُزِّلَ في ذلك اســتعظامهم هلاكهُ منزلةَ إنكارهم إيّاه... ». (الصعيدي، ١٩٩١: ٥٣) و قال أيضاً: « فكأنهم يعتقدون الشركة بين الرسالة و التبري من الهلاك و بهذا كان القصر على الرسالة قصر إفراد».(الصعيدي، ١٩٩٩، ج٣: ٥٣)

٢-وقال أحمد مصــطفى المراغي: «(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُــولٌ)؛ أي: مقصــورٌ على الرســالةِ، لايتعدّاها إلى التّبرّي و التباعُد عن الهلاك، نُزِّلَ اســتعظامُهُمْ هلاكَهُ وشِـدَّةُ حِرصهم على بقائه منزلةَ إنكارِهِمْ ذلك». (المراغي، ١٩٨٤: ١٣٩)

٣-وقال محمد عبدالمنعم خفاجي: «فالمخاطبون وهم الصــحابة كانوا عالمين بكونه مقصوراً على الرسالة غير جامع بين الرسالة والخلود، و هو التَّبرّي من الهلاك و الموت، لكنهم لَمّا كانوا يَعدّونَ هلاكه و موتَه أمراً عظيماً نُزِّلَ اسـتعظامُهُم لموته منزلةَ إنكارهم إيّاه».(الخطيب القزويني، ١٩٩٣،ج٣: ٣٥)

٤-وقال أحمد أحمد بدوي: «ومما ورد منه إضــافياً قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُــولٌ قَـدْ خَلَـتْ مِنْ قَبْلِـهِ الرُّسُــلُ أَفَـإِنْ مَـاتَ أَوْ قُتِـلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَـابِكُمْ)(آل عمران/١٤٤)، فليس المرادُ هنا قصرَ محمد على الرسالة فحسبُ بحيثُ لايتعدّاها إلى غيرها، بل المرادُ أنَّ محمّداً مقصــورٌ على الرســالة لايتعدّاها إلى الخلوص من الموت الذي استعظموا أنْ يُلِمَّ به».(أحمد بدوي، ١٩٥٠: ١٥٦)

٥-وقال عبده عبد العزيز قلقيلة: «((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُــولٌ قَـدْ خَلَـتْ مِنْ قَبْلِـهِ الرُّسُــلُ)(آل عمران/١٤٤) أي إنه -صــلّى الله عليه و ســلّمَ- مقصــورٌ على الرســالة لايتعدّاها إلى التَّبرّي من الهلاك، نَزّلَ -سبحانه و تعالى- إنكارَهُم موتَهُ منزلةَ إنكارِهم رسالتَهُ».(قلقيلة،١٩٩٢: ٢٤٤)

٦-وقال بســيوني عبدالفتاح فيود: «و تأمل قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُــولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُــلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)(آل عمران/١٤٤)؛ فالصحابة، رضوان الله عليهم، لِشِـدَّةِ تَعَلُّقِهم وحُبِّهِم للنَّبيّ، صـلّى الله عليه و سـلّم، نُزِّلوا منزلةَ مَن يعتقدُ أَنَّ محمداً، عليه الصـلاةُ والسـلامُ يجمع بين صـفتي الرسـالة و

الخُلْدِ، فجاءَ أُسلوبُ القصر مفيداً أنّه، عليه الصلاةُ والسلامُ، مقصورٌ على صفة الرسالة، فهو رسـولٌ يخلو كما خَلَتِ الرُّسُـلُ من قبله، لايتجاوزُ صـفةَ الرسـالةِ إلى التخليد في الدنيا».(فيود،۲۰۰۸: ۲۹۲)

۷-وقال محمد هاشـم دويدري: «قصـر الموصـوف على الصـفة...نحو قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُـولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُـلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا)(آل عمران/١٤٤)؛ فقد قصرَ اللهُ محمداً " صـلى الله عليه و سـلّم، على صـفة الرسـالة و لكنه نفى عنه الخلودَ، فهو رسـولٌ ولكنّه يموت، ويُقتلُ و يَفنىٰ شأنُه في هذا شأنُ سائر البشر».(دويدري، ۱۹۷۰: ٧٤)

واضح جداً أنَّ جميعَ هولاء الدارسين المعاصـرينَ قلَّدُوا السكاكي في كونِ المنفي بهدا القصر هو الخلودَ.

مناقشة السَّكاكيّ:

إنَّ مناقشتي للسكاكي تَتِمُّ في اربع جهات أذكرها فيما يلي:

الجهة الأولى:

تعيين المقام (حال الخطاب) والاعتبار المناسـب (المقتضـىٰ): يجبُ التعرِّفُ على المقام والاعتبار المناسب و تعيينهما بدقة؛ لأنهما الأساسُ الذي يقومُ عليهما الكلامُ؛ لأنَّ المقامَ هو الذي يحملُ المتكلمَ على أنْ يُوردَ كلامَهُ على صـورة تُناسـبُ المقامَ؛ فمثلاً: إذا كان الطلابُ أذكياء، فانَّ ذكاءَهم هو المقام الذي يحملُ الأسـتاذَ على أنْ يُوجِزَ ويختصرَ كلامَه، ليكونَ الإيجاز مطابقاً لذكائهم و مناسباً له، أما إذا أطنبَ الأستاذُ انعدمت المطابقةُ بين المقام و الاعتبار المناسـب لذلك لايكونُ الكلامُ بليغاً، كما لايكونُ قائلُه بليغاً، أمّا إذا كان الطلابُ أغبياء، فإنَّ غباءهم يحملُ الأسـتاذَ على أنْ¬يُطنِبَ ويُكرِّرَ ويُوردَ أمثلة كثيرةً، وذلك ليكونَ الإطنابُ مطابقاً ومناسباً للمقام الذي هو غباءُ الطلاب وبذلك يكونُ الكلامُ بليغاً كما يكونُ قائلُه كذلك، أما إذا أوجزَ هذا

الأسـتاذُ انعدمت المطابقةُ والمناسـبةُ بين المقام والاعتبار المناسـب الذي هو الإطنابُ لذلك يكونُ الكلامُ وقائلُه غيرَ بليغين و كذلك الأمرُ في كل جملة تُقالُ أو تكتبُ يعني لاتخلو جملةٌ بليغةٌ من المقام و الاعتبار المناسب.

المقام و الاعتبار المناسب عند السكاكي:

إنَّ التفتازاني صـرّح بالاعتبار المناسـب إذ قال: «والاعتبارُ المناسـبُ هنا هو الإشـعارُ بِعظَم هذا الأمرِ في نفوسـهم و شـدَّة حِرصـهم على بقائه عندهم» .(التفتازاني، بلاتا، ج۱: ۱۹٤) فالاعتبار المناسـبُ عند السـكاكي هو اسـتعظامُ الصـحابةِ «رض» لموتِ النَّبيّ «ص» وشدّةُ حرصهم على بقائه عندهم.

أمّا المقامُ فقد صـرّحَ به الدسـوقي حين شـرحَ نَصَّ التفتازاني المذكور آنفاً، فقال: «قوله (أي: قول التفتازاني) والاعتبار المناسـب هنا؛ أي: لمقام الرسـالة هنا». (الدسـوقي، بلاتا، ج۱: ٦٢٤) فالمقامُ عند السـكاكي هو الرسـالة؛ أي: المقام هو كون محمد «ص» رسولاً بعثه الله ـ تعالى- لهداية البشر على مرّ العصور و الأزمان إلى آخر الدنيا.

واسـتناداً إلى أنَّ الاعتبار المناسـب يجبُ أن يكونَ موافقاً و مناسـباً للمقام و أنَّ المقامَ يقتضـي كلاماً يُناسـبُه لذلك يجبُ أن يكونَ اسـتعظامُ الصـحابة لموت النَّبيّ «ص» موافقاً و مناسـباً لكون محمد «ص» رسـولَ الله حقاً و صـدقاً باعتقادٍ راسـخٍ و إيمانٍ مُحكمٍ، علماً بأنَّ هؤلاءِ العلماءَ بِدءاً بالسكاكي قدنَسَبُوا لِلّه -تعالى- أنّه هو الذي نَزَّلَ هذا الاسـتعظامَ منزلةَ إنكارهم موتَه «ص»؛ أي: إنّه -تعالى- هو الذي نَزَّلَ اسـتعظامَ الصـحابة موتَه «ص» منزلةَ اعتقادهم خُلودَهُ، لذلك صـار اعتقادُ الصـحابة خلودَ النّبيّ «ص» موافقاً ومناسـباً لكون محمدٍ «ص» رسـولَ الله. هذه هي خلاصـة رأي السـكاكي. لكنَّ هذا الرأيَ مخالفٌ للعقل؛ لأنّه يُعطي نتيجةً سـلبية، وذلك لعدم وجود مناسبة بين المقام ومايقتضيه خصوصاً إذا أضفنا إلى ذلك ما أفاده السبكي حينَ

قال: «إنَّ اعتقادَ الرسالة و عدمَ الموت -هو الخلود- لايجتمعان، وإنكارُهُمُ الموتَ يَنْفي أنْ يجتمعَ معه الإقرارُ بالرسالة».(السبكيّ، ۲۰۰۳، ج۱: ٤١٠) فإنكارُهُمُ الموت و هو المقتضىٰ، لايُناسبُ الإقرارَ بالرسالة الذي هو المقامُ، فهما مُتنافيانِ.

هذه هي النتيجة التي تَمَخَّضَ عنها رأيُ السكاكي، وهي أنَّ هذا الاعتبارَ المناسبَ لايُناسبُ هذا المقامَ و أنَّ هذا المقامَ لايقتضي مثلَ هذا الاعتبارِ؛ لأنَّه لايُناسبُه، و هذا يعني أنَّ المقامَ و المقتضىٰ متناقضان و غير متناسبين. لكنَّ الذي يبدو أنَّ السكاكي خَفِيَ عليه هذا التناقضُ الذي يَؤولُ إليه رأيُه لذلك اعتبرَ هذا المقامَ مقتضياً لهذا الاعتبار، و رأىٰ أنهما غيرُ متناقضين. إذن ما هو المقام الحقيقي؟ وما هو الاعتبار المناسب؟ أذكر الجوابَ تحت العنوان التالي:

المقام و الاعتبار المناسب الحقيقين:

إنني لاأشُكُّ في أنَّ المقامَ هو سببُ نُزولِ الآياتِ المبدوءة بقوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) (آل عمران/١٤٤)؛ و سببُ نزول هذه الآيات الكريمة هو مخالفةُ الصحابة لأمر الرسول الأكرم «ص» في حرب أُحُدٍ؛ لأنهم تركوا الأماكنَ التي أمرَهُم الرسولُ الأعظمُ «ص» بالثباتِ فيها و عدم تركها حتى في حالة انتصار المسلمين. فكانت نتيجةُ هذه المخالفةِ أنْ غَلَبَهُم العَدُوُّ و هَزَمَهُمْ لاسيّما حين سَمِعوا منادياً يُخبر بموتِ النَّبيّ «ص» في حينَ كانَ الأجدرُ بهم أنْ-يَثبتوا ويُواصلوا القتالَ، ويَطلبوا النصرَ من الله-تعالى-، قال سبحانه: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) (آل عمران/١٢٦).

فهذا هو المقامُ الذي اقتضى مجيَ القصرِ في بدايةِ هذه الآيات الكريمات، أي: إنَّ مجيَ الآيةِ بالقصر هو الاعتبارُ المناسبُ الذي اقتضاه سببُ النزول. يعني إنَّ سببَ النزول اقتضى مجيَ القصر؛ أي: إنَّ مخالفةَ الصحابةَ لأمر الرسول الأعظم «ص» وعدمَ ثَباتِهم في مُواجَهَةِ الكُفّارِ كلُّ ذلك يقدحُ في صحة اعتقاد مَن انهزم بأنّ محمداً

«ص» رسولُ الله، فلوكان اعتقادهم بكونه «ص» رسول الله اعتقاداً راسخاً لَثَبتوا و لَمّا وَهَنُوا ولَمّا ضَعُفُوا و لَقاتلوا حتى الشهادةِ كما فعلَ أصحابُ أنبياءٍ كثيرين؛ قال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران/١٤٦). قال فخر الدين الرازي: «واعلمْ أنه -تعالى- من تمام تأديبه قال للمنهزمين يومَ أُحُدٍ: إنَّ لكم بالأنبياء المتقدمينَ و أتباعِهم أُسوةً حَسَنةً، فلما كانت طريقةُ أتباع الأنبياء المتقدمين الصّبرَ على الجهاد، وتركَ الفرار، فكيفَ يليقُ بِكُمْ هذا الفرارُ والانهزامُ» (الرازي، بلاتا، ج٩: ٢٥) و قال أيضاً: «فالمعنى: وكم من نبيّ قاتلَ معه العددُ الكثيرُ من أصحابه، فأصابَهُم من عَدُوِّهِمْ قَرحٌ، فما وهَنُوا؛ لأنَّ الذي أصابهم إنّما هو في سبيل اللهِ و طاعتِه وإقامَةِ دينِه، ونُصرةِ رسولِه، فكذلك كانَ ينبغي أنْ تفعلوا مثلَ ذلك يا أُمَّةَ محمدٍ» (المصيدر نفسه، ج٩: ٢٦)

نعم إنَّ موتَ نبيٍّ من الأنبياء لايجوزُ ولايَصِحُّ أنْ يكونَ أو يُعتبرَ سبباً لِفرار أصحابه وعدمِ مواصلة مسيرته التي بدأها واستَمَرَّ عليها. بل يَجِبُ عليهم أنْ يُواصلوا مسيرتَه لاقامة دين الله ،تعالى، لاسيّما وأنَّ القرآنَ أكَّدَ أنَّ هذا الدين يجبُ أنْ يُظهِرَهُ اللهُ -سبحانه- على الدين كلّه، وأنْ¬يبقى مابقيت الدّنيا.

قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (التوبة/٣٣؛ الفتح/٢٨؛ الصّفّ/٩)

وقال فخرالدين الرازي: "وحاصلُ الكلام أنّه -تعالى- بَيَّنَ أنَّ قتلَهُ لايُوجبُ ضعفاً في دينه بدليلين: الأول: بالقياس على موتِ سائر الأنبياء وقتلهم و الثاني: أنَّ الحاجةَ إلى الرسول لتبليغ الدين، وبعد ذلك فلاحاجةَ إليه، فلم¬يلزمْ من قتله فسادُ الدين والله أعلمُ" (الرازي، بلاتا، ج٩: ٢٢؛ قوله: (قتله) أي: قتل الرسول «ص»)

والمهم أني أرى أنَّ المقامَ هو سببُ نزول الآية، وأنَّ الاعتبارَ المناسبَ هو مجئُ القصر فيها، فالقصرُ هو الذي أثبتَ وأكَّدَ الرسالةَ لمحمدٍ «ص»؛ لأنّها هي التي يجبُ

أنْ يعتقدَ بها جميعُ المسـلمين بل الناس كافّةً اعتقاداً راسـخاً وفي نفس الوقت هو (أعني القصر) الذي نفى عن الرسول الأعظم «ص» الكذب والجنون والسحر والادّعا، فالقصر، وهو الاعتبار المناسب، ملائمٌ لسبب نزول الآية؛ ولاشكّ أنّ هذا النفي قدأكّد صحة ثبوت كونه «ص» رسول الله كباقي الرسل «ع» لذلك يجب اتّباعه في اوامره و نواهيه، كما تجب مواصلة نهجه و مسيرته «ص» و عدم تركها والتراجع عنها بعد موته «ص».

الجهة الثانيةُ من جهات المناقشة:

سَببُ نُزولِ الآياتِ:

إنَّ كلامَ السكاكي يُفهَمُ منه أنَّ هذا الاستعظامَ الذي ابتكره، و نسبه لله، تعالى، هو سبب نزول هذه الآيات، و هو الذي انتهى بنفي الخلود عن الرسول الأعظم «ص»؛ قال السكاكي: «ومن الوارد في التنزيل على قصر الإفراد قوله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) (آل عمران/١٤٤)؛ فمعناه: محمدٌ مقصورٌ على الرسالة لايتجاوزها إلى البُعد عن الهلاك، نُزّلَ المخاطبونَ لاستعظامهم أنْ لايبقى لهم منزلةَ الْمُبعدين لِهلاكه».(السّكاكيّ، ١٩٨٣: ٢٨٩)

وهذا يعني أنَّ الصحابة استعظموا وفاةَ الرسول الأكرم «ص»، فنَزَّلَ اللهُ -تعالى- استعظامَهُم هلاكَهُ «ص» منزلةَ إنكارهم هلاكَه (يراجع دويدري، ١٩٧٠: ٣٧٧) أي: نزّلَ اللهُ -عزّوجلَّ- استعظامَ الصحابة وفاةَ الرسولِ الأكرم «ص» منزلةَ اعتقادهم أنه خالدٌ، لذلك جاء القصرُ في هذه الآية لِيُثبتَ له «ص» الرسالةَ، وينفيَ عنه الخلودَ.

إذن فاستعظامُ الصحابة لموته «ص» كان هو سببَ تنزيلهم منزلةَ المعتقدين خلودَهُ، وهذا التنزيل هو سببُ نزول هذه الآية التي نَفَتْ عنه «ص» الخلودَ، وأثبتَتْ له «ص» الرسالةَ، فهذا الاستعظامُ أو هذا التنزيلُ هو سبب نزول الآية التي نفت الخلودَ عن الرسول الأكرم «ص».

وإذا صَحَّ ذلك فعلينا أنْ¬ نتحرّىٰ حقيقةَ الأمر ونسـألَ الواقع التاريخي عن سـبب النزول الحقيقي؛ هل سبب النزول هو هذا الذي فهمناه من نصوص السكاكي وتابعيه أو أنه شـئ آخر؟ لأنَّ معرفةَ سـبب النزول الواقعي يلعبُ دوراً أسـاسـياً في هذا البحث؛ لأنّه يُعَيِّنُ لنا الشئَ الذي نفاهُ القصرُ، والذي لاغنىٰ لنا عن معرفته، لذلك أُعيدُ السؤالَ بعبارة أوضح وأقولُ: هل كانَ سبب نزول هذه الآيات الكريمة هو استعظامَ الصحابة، أي: هل هو تنزيلهم منزلةَ المعتقدين خُلودَه «ص»، أو كان شيئاً آخر؟

الجواب:

إنَّ الرواةَ والمفسـرين مُجمعونَ على أنَّ هذه الآيات الكريمات إنّما نزلَتْ في واقعةِ أُحُدٍ حينَ عصـى الرماةُ آمرَ الرسـول الأعظم «ص» ولم¬ يُطيعوه إذ أمرهم بعدم ترك مواقعهم العسكرية. لكنهم أغْرَتْهُمُ الغنائم، فتركوا مواقعهم لذلك احتلها العدُوّ وهَزَمَهُمْ وكثر فيهم القتلُ. وغنيٌ عن الذكر أن¬ نقول: إنَّ الوحيَ انقطعَ بعد وفاة الرسول «ص» فلم¬ يَنزِلْ بعد وفاتهِ شـئٌ من القرآن المجيد في حين أنَّ استعظامَ الصحابةِ كانَ بعد وفاتِه.

والمهمُ الآنَ هو أنْ¬ نذكر -فيما يلي- نصـوصَ بعض المؤرخين والمفسـرين القدامىٰ حولَ سبب نزول هده الآيات:

١- قال أبوزكرياء الفرّاء (٢٠٧ه): «لأنَّهم قالوا يومَ أُحُدٍ: قُتِلَ محمدٌ -صـلّى الله عليه وسلم- ففشلوا، ونافَقَ بعضُهم، فأنزلَ اللهُ - تبارك و تعالى-: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُـلُ) (آل عمران/١٤٤) و أنزلَ: (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) (آل عمران/١٤٦)». (الفرّاء، ١٩٨٠، ج١: ٢٧٣)

٢-وقال ابن هشـام (٢١٣ه أو ٢١٨ه) تحت هذا العنوان: (ذِكرُ ما أنزلَ اللهُ في أُحدٍ من القرآن)، قال: «(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُـولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُـلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُـرَّ اللَّهَ شَـيْئًا وَسَـيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران/١٤٤)؛أي: لقولِ الناسِ: قُتِلَ محمدٌ -صلّى الله عليه و سلَّم-

وانهزامُهُمْ عند ذلك و انصـرافُهُم عن عَدُوِّهِمْ (أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ) رَجَعْتُم عن دينكم كُفّاراً كما كنتم، وتركتم جهاد عدُوّكم وكتابَ اللهِ، وما خلَّفَ نبِيُّهُ -صلّى الله عليه وسلّم- من دينه معكم و عندكم و قد بيّن لكم فيما جاءكم به عنِّي أنه مَيِّتٌ ومُفارقُكم؛ (وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ): أي يرجع عن دينه... ».(ابن هشام، بلاتا، ج۲: ۱۱۱-۱۰۶)

۳-وقال الزَّجّاج (٥٣١١ه): «ورُوِيَ أنَّ بعضَ مَن كانَ في يوم أُحُدٍ ارْتَدَّ وبعضـهم مضى مسافةَ ثلاثةِ أيامٍ، فأعلَمَ اللهُ - جلَّ وعزَّ- أنَّ الرُّسَلَ ليستْ باقية في أمَمِها أبداً، وأنه يجبُ التمسُّكُ بما أتَتْ به وإنْ فُقِدَ الرسولُ بمَوتٍ أو قَتلٍ...المعنى: أَتَنْقَلِبُونَ على أعقابكم إنْ ماتَ محمدٌ أو قُتِلَ».(الزّجّاج، ١٩٧٤، ج١: ٤٨٧)

٤-وقال الواحدي (٤٦٨ه): «قوله (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُـولٌ) الآيات، قال عطية العوفي: لَمّا كانَ يومُ أُحُدٍ انهزمَ الناسُ، فقال بعضُ الناس: قد أصـيبَ محمدٌ، فأعطوهم بأيديكم، فإنّما هُمْ إخوانُكم، وقال بعضُهم: إنْ كانَ محمدٌ أُصيبَ ألاتَمضونَ على ما مضى عليه نَبِيُّكم حتى تلحقوا به، فأنزلَ اللهُ -تعالى- في ذلك: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُـولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُـلُ)...إلى قوله: (فَـآتَـاهُمُ اللَّـهُ ثَوَابَ الـدُّنْيَـا)(آل عمران/١٤٨)». (الواحدي، ٢٠٠١: ٨٣)

٥-وقال الزمخشـري (٥٢٨ه): «قوله (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُـولٌ) إلى قوله تعالى (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)...وصرخ صارخٌ: ألا إنَّ محمداً قد قُتِلَ...ففشا في الناس خبر قتله، فانكفأوا، فجعل رسـول الله يدعو: (إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ) (الدخان/١٨) حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا، أتانا خبر قتلك، فرَعُبَتْ قلوبُنا، فوَلَّينا مُدبرين، فنَزلَتْ».(الزمخشـري، بلاتا، ج١: ٤٢٢)

٦-وقال فخر الدين الرازي (٦٠٦ه): «قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُـولٌ...) إلى قوله تعالى: (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)؛ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: لَمّا نزل النّبيّ -صلّى الله عليه و سلّم- بأُحُدٍ أمرَ الرُّماةَ أنْ يلزموا أصلَ الجبل_ وأنْ¬ لاينتقلوا

عن ذلك ســواء كان الأمر لهم أو عليهم، فلمّا وقفوا و حملوا على الكفار، وهزموهم وقتل عليٌّ طلحةَ بنَ أبي طلحة صــاحب لوائهم...ثم إنَّ بعضَ القوم لَمّا أنْ رأوا انهزامَ الكفار بادرَ قومٌ من الرُّماة إلى الغنيمة...فلمّا رأى -خالدبن¬الوليد تَفرُّقَ الرُّماة حَمَلَ على المسلمين، فهزمهم، وفرّق جَمعَهُم ...» (الرازي، بلاتا، ج۹: ۲۰)

إذن ثَبُتَ قطعاً بما لايقبلُ الشَّـكَّ أنَّ سـببَ نزول هذه الآية الكريمة إنما هو انهزامُ الصــحابة يومَ أُحُدٍ لمخالفتهم أمرَ الرســول «ص» ونفاقِ فريقٍ منهم، وارتدادِ آخرينَ و سيطرةِ الرُّعْبِ على بعضهم، فهربَ مسافةَ ثلاثةِ أيامٍ، فلم¬يَمضُوا على ما مضى عليه النّبيُّ «ص» ولم يَتَّعِظوا بصحابةِ كثيرٍ من الأنبياء حينَ واصلوا مسيرةَ أنبيائهم، وقاتلوا فما وهَنُوا ولااســتكانوا، وهذا يَدلُّ على ضـعف إيمانهم. و قد قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ. وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ¬بَاءَ بِغَضَــبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ-الْمَصِــيرُ) (الأنفال/١٦-١٥)

و أضــيفُ أنَّ الذي تظاهرَ باســتعظام وفاةِ الرســول «ص» بعد وفاته «ص» ليس جميعَ الصحابة «رض» بل هو صـحابيٌّ واحدٌ فقط وهو عمرُبن الخطاب «رض» الذي كان يَجهرُ بنفي خبرِ وفاة النّبيّ «ص» حتى جاء أبوبكر«رض»، وقرأ الآيةَ الكريمةَ، فتراجَعَ عمرُ عن اســتعظامه، وأقرَّ أنه لم يكنْ يَعلمُ بنزول هذه الآية في زمن الرســول «ص» ويبدو أنه لم¬يكنْ يعلمُ بنزول غيرها من الآيات التي تشيرُ إلى أنَّ الخلودَ صفةٌ لِلّه -تعالى- وحدَهُ ولايُشــركُه فيها أحَدٌ، كقوله تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (الرحمن/٢٧-٢٦) و قال ســبحانه: (وَمَاجَعَلْنَا لِبَشَــرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) (الأنبياء/٣٤) وقال عزّوجلَّ: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...) (آل عمران/ ١٨٥). قال جَلَّ وعَزَّ: (لا إلهَ إلّا هوَ كُلُّ شَــيءٍ هالِكٌ إلا وَجْهَهُ لَهُ الحُكمُ وَإليهِ تُرجَعونَ) (القصص/ ٨٨)

قال البخاري: «حدثنا إسـماعيلُ بنُ عبدالله ...عن عائشـةَ -رضـى الله عنها- زوج

النّبيّ -صلّى الله عليه وسلَّمَ-: أنَّ رسولَ الله -صلّى الله عليه و سلَّم- ماتَ وأبوبكرٍ بالسُّنحِ، قال إسماعيلُ: يعني بالعاليةِ، فقامَ عمرُ يقولُ: (واللهِ ما ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ) قالت: وقالَ عمرُ: (واللهِ ما كانَ يقعُ في نفسي إلّا ذاكَ، ولَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أيدِيَ رجالٍ وأرجلَهُمْ)، فجاء أبوبكر، فكشف عن رسولِ اللهِ -صلّى الله عليه وسلَّم- فَقَبَّلَهُ...ثم خرج، فقال: «أيُّها الحالفُ على رِسلِكَ»...وقال: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...) إلى قوله تعالى: (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)». (البخاري، بلاتا، ج٢: ٢٩١ و ج٣: ٩٥) و ذكر العلّامة السِّنديّ في حاشيته على صحيح البخاري أنَّ عمرَ قالَ بعدَ أنْ سمع الآية من أبي بكر: (أَوَ إنَّها في كتاب الله! وماشعرتُ أنَّها في كتاب الله). (المصدر نفسه، ج٣: ٩٥؛حاشية السِندي).

وأوَدُّ أن أُعيدَ إلى الذاكرة أنَّ استبعادَ وفاةِ الرسولِ الأكرم «ص» ينفي الاعتقادَ برسالته «ص» هذا ما أفاده بهاء الدين السُّبكيّ حين قال: «من استبعدَ مَوتَه، فكأنَّه استبعدَ رسالته...فإنَّ اعتقادَ الرسالة وعدمِ الموت لايجتمعان وإنكارُهُمُ الموتَ ينفي أنْ¬يجتمع مع الإقرار بالرسالة».(السبكيّ، ٢٠٠٣، ج١: ٤١٠)

وفي كلّ مامَرَّ دليلٌ على أنّه لاعلاقةَ للاستعظامِ بسببِ نزولِ هذه الآيات الكريمات و أنَّ المستعظِمَ شخصٌ واحدٌ أو شخصين وليس جميعَ الصحابة وأنَّ أبابكر رفضَ كلامَ عمر واستعظامَهُ، وأنَّ الخلودَ يستحيلُ أن يكونَ صفةً لغيرالله عزَّوجلَّ، وأنَّ المنفيَّ في هذا القصر ليس هو الخلودَ. بل هو ما سأذكره في الجهة الثالثة التالية، وأننا علمنا من كل ما مرّ أنه لاعلاقة لتفسير السكاكي بالتفسيرالواقعي للقصر في الآية الكريمة المذكورة.

الجهة الثالثة: مانفاه القصر ومأأثبته:

قال تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) (آل عمران/١٤٤)

إنّ القصر في هذه الآية الكريمة هو قصرُ الموصوف على الصفة، وقد بحثَ عبدُ

القاهر الجرجاني هذا النوعَ من القصـر بحثاً عميقاً حين قال: «واعلمْ أنَّ قولنا: (في الخبر إذا أُخِّرَ) نحو: (ما زيدٌ إلّا قائمٌ) أنَّكَ اختصَـصـتَ القيامَ من بين الأوصـاف التي يُتَوهَّمُ كونُ زيدٍ عليها، ونَفَيْتَ ماعدا القيامَ عنه، فانّما تعني أنَّكَ نفيتَ عنه الأوصـافَ التي تُنافي القيامَ نحو أنْ¬يكون جالساً أو مضطجعاً أو مُتَّكئاً أو ما شاكلَ ذلك، ولم تُرِدْ أنَّكَ نفيتَ ماليس من القيام بسبيل؛ إذْ لسنا ننفي عنه بقولنا: (ماهو إلّا قائمٌ) أن يكونَ أسودَ أو أبيضَ أو طويلاً أو قصيراً أو عالماً أو جاهلاً» (الجرجاني، ١٩٧٨: ٢٦٦).

إذن فالصـفاتُ المنفيةُ في هذا النوعِ من القصـر هي الصـفاتُ التي تُنافي الصـفةَ المذكورةَ، ولاتجتمعُ معها، و إنَّ نَصَّ عبدالقاهر هذا يهدينا إلى معرفة مانفاهُ القصرُ في هذه الآيةِ الكريمة حيثُ أثبتَ هذا القصـرُ الرسـالةَ للرسـول الأكرم «ص»، و في نفس الوقتِ نفا عنه «ص» السِّـحرَ والجنونَ وادّعاءَ النُّبوّةِ، وبذلك يكونُ هذا القصـرُ قدأكَّدَ كونَ محمدٍ «ص» رسـولَ الله، وأنّه يجبُ اتّباعُه وإطاعةُ أوامِرِه ونواهيهِ حَيّاً ومَيِّتاً، وأنّه يجبُ مواصـلةُ مسـيرتهِ، والاسـتمرارُ على نهجِهِ وصـراطهِ المسـتقيم. ومعلومٌ أنَّ هذا القصـرَ لم¬يَنفِ عنه «ص» صـفاتهِ الحميدةَ التي مدحه اللهُ -تعالى- بها، وهي مكارمُ الأخلاق، كما أنّه لم¬يَنفِ عنه الموتَ، وقدأكَّدَت الآيةُ ذلك في قوله تعالى: (قد خَلَتْ من قبله الرسلُ)، علماً بأنَّ الموتَ لم¬يُنْفَ عن أحد قطّ لأنه أمرٌ بديهيٌّ لايختلفُ عليه اثنان، فالخلودُ في الدنيا ليس من صـفات البشـر، ولا يجتمعُ مع أيَّةِ صـفةٍ أخرى في شـخصٍ، قال تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ؛ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (الرحمن/٢٧-٢٦) و قال -سبحانه- مُشيراً إلى إفنائه الكونَ و مَن فيه ثمّ إعادةِ خلقِه مِن جديد: (يَوْمَ نَطْوِي السَّـمَاءَ كَطَيِّ السِّـجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (الأنبياء/ ١٠٤) (الزمخشري، بلاتا، ج٣: ١٣٧)

وهذا هو الذي دفع عصـامَ الدين الحنفيّ إلى القول بأنَّ اسـتعظامَ الصـحابة موتَ الرسـول الأعظم «ص» نُزِّلَ منزلةَ أنَّهم ادّعَوا أنّه «ص» إلهٌ؛ أي: كـأنَّهُم ادّعَوا أنَّه «ص» إلهٌ، وذلك حينَ قال: "نُزِّلَ استعظامُهُمْ هلاكَهُ منزلةَ دعوى أُلُوهِيَّتِهِ؛ لأنَّ البقاء

يَخُصُّ الإلهَ: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) (القصص/٨٨) (الحنفي، ٢٠٠١: ٥٥٩)

والنتيجةُ التي نَحصلُ عليها أنَّ الصفات التي نَفاها القصرُ في هذه الآية الكريمة إنّما هي السِّحرُ والجُنونُ وادّعاءُ النُّبُوَّةِ. وليست هي الخلودَ الذي ادّعاهُ السكاكيّ ومَن تَبِعَهُ؛ كالخطيب القزويني والتفتازاني والبابرتي والسُّبكي وغيرهم، وذلك للدليلين التاليين: الدليل الأوّل: أنَّ الخلودَ صفةٌ منفيَّةٌ أساساً وأصلاً عن كلّ ما خلقَ الله -تعالى-؛ لأنها صفةٌ تفرَّدَ وتَوَحَّدَ واختصَّ بها الخالقُ -عَزَّوجلَّ- ولاشريك له فيها، كما لاشريك له في الأُلُوهِيَّةِ، والدليلُ الثاني: أنَّ الجنونَ والكذبَ والسحرَ هي الصفاتُ التي تُنافي الرسالةَ، وهي التي نسبَها المشركونَ إلى الرسولِ الكريم «ص» قاصدين نَفيَ الرسالةِ عنه «ص»، فهذه الصفاتُ هي المقصودة بالنفي، واللهُ أعلمُ، وليس الخلودُ، أمّا الخلودُ، فلايَستَقِلُّ بمُنافاة الرسالة؛ أي: ليس هو وحدَهُ الذي نُفِيَ عن الرسول الكريم «ص». بَل نُفِيَ عنه «ص» السحر و الجنون و الكَذَب أيضاً، فالخلودُ لايختص بنفيه عن الرَّسول الاكرم «ص»؛ بل إنه كما قلنا قبل قليلٍ، منفيٌّ اساساً عن جميعِ ما خلق اللهُ تعالىٰ، و لسائلٍ أنْ يسألَ ويقولَ: كما أنَّ صفةَ الكذبِ والسحر والجنون لاتجتمعُ مع الرسالة، فإنَّ صفةَ الخلود أيضاً لاتجتمع معها، و بناءً على ذلك يكونُ رأيُ السكاكي صحيحاً لاغُبارَ عليه، فهل يوجدُ فرقٌ بينهما؟

الجواب:

نعم، يوجدُ فرقٌ أساسيٌّ بينهما من جهة استحالة اجتماع كلٍّ منهما مع الرسالة، وهو أنَّه يمكنُ أنْ¬يجتمعَ كلٌّ من الكذب والسحر والجنون مع صفة أخرى عند غير الرسل «ع»؛ فمثلاً: قدتجتمع صفة الكذب مع صفة أخرى عند عالم الهندسة أو عند غيره. لكنْ يستحيلُ اجتماعُ كلٍّ من هذه الصفات مع صفة الرسالة؛ لأنَّ الرسالةَ هي تبليغُ حِكَمِ الله -تعالى- وأوامره ونواهيه، فهذه الصفاتُ وأمثالها هي وحدَها التي نُفِيَتْ عن الرسول الأعظم «ص». أمَّا الخلودُ، فيستحيلُ أنْ يتَّصفَ به إنسانٌ سواءٌ أكانَ رسولاً أم غيرَ رسولٍ، وكذلك يستحيلُ اجتماعُ الخلود مع صفة أخرى، فالخلودُ

لايَختصُّ بأنَّهُ منفيٌّ عن الرسـول الأعظم «ص» فقط. بل هو منفيٌّ عن جميع الأحياءِ. بل هو منفيٌّ عن الكون و ما فيه فهو عامٌّ يشـمُلُ جميعَ ما خلقَ البارئُ تعالى، فالسـحر والجنون والكَذِب صـفاتٌ منفيةٌ عن جميع الرُّسـل «ع». لكنها غيرُ منفية عن غيرهم. أمّا الخلودُ فنَفْيُهُ عن الخلق أمرٌ ثابتٌ ومعلومٌ لجميع البشـر، عالِمِهِمْ وجاهِلِهِمْ؛ لأنه ثبتَ لهم حقيقةً وواقعاً في آبائهم وأجدادهم الماضين. واستناداً إلى هذا التفسير الذي قدّمناه فلاداعيَ ولاضرورةَ تدعو إلى أنْ يُكلِّفَ علماءُ البلاغة أنفسَهُم و يُجهدوا أذهانَم لكي يفترضـوا عمليةَ التنزيل وأنْ ينسـبوا إلى اللهِ تعالى- أنَّه سـبحانه- هو الذي نزَّلَ استعظامَ الصحابة منزلةَ إنكارهم موتَ الرسول الأكرم ص؛ أي: منزلةَ اعتقادهم بأنَّه خالدٌ، ففيما أوضحناه كفايةٌ واستغناءٌ عن أن ينسبوا للّهِ تعالى- شيئاً اجتهادياً مُفترَضاً لاتُعلَمُ صـحّتُهُ، فالأفضـلُ الابتعادُ عن الدخول في متاهات ذهنية أو وهمية بعيدة عن البحث العلمي الخالص النقيّ.

الجهة الرابعة:

ارتباط البحث البلاغي في القرآن الكريم بالتفسير:

إنَّ البحث البَلاغي في القرآن الكريم نوعٌ مهمٌ من أنواع التفسـير؛ لأنه يلعبُ دوراً رئيسـياً هامّاً جداً في تفسـير كثير من الآيات المتشـابهات ودفعِ توهّم الشّـكّ والشـبهة عنها ومانَسَـبَهُ المنافقون والجاهلون للقرآن الكريم من التناقض. لذلك فالبحث البلاغي لايُستَغنىٰ عنه في التفسير. وقدأكَّدَ عبدالقاهر ذلك كثيراً خصوصاً حين هاجم بعض المفسـرين الذين لم¬يطرقوا البحوثَ البلاغية في الموارد التي تسـتلزمها، ولايلتفتون إليها، وذلك حين قال: «ومن عادة قوم ممّن يتعاطى التفسـيرَ بغيرِ علم أنْ¬يُوهِمُوا أبداً في الألفاظ الموضـوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها، فيُفسدوا المعنى بذلك، ويُبطلوا الغرضَ، ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلمَ بموضع البلاغة وبمكان الشرف. وناهيك بهم إذا هم آخذوا في ذكر الوجوه، وجعلوا يكثرون في

غيرطائل. هناك ترى ماشئتَ من باب جهل قدفتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به، ونسألُ الله تعالى العصمةَ والتوفيق» (الجرجاني، ۱۹۷۸: ۲۳٦).

لكنْ يجبُ أنْ¬يسمو البحثُ البلاغي و يرقى إلى مستوى المعاني القرآنية السامية ويتلائمَ معها ولايخرجَ عن ذلك. أمّا إذا أرادَ العالمُ البلاغي أن¬يجتهدَ وينسبَ شيئاً إلى الله -سبحانه- فانه يجبُ عليه أنْ¬يستدلَّ برواية صحيحة معتبرة، أو أنْ¬يختمَ كلامَه بالعبارة التالية: (واللهُ، تعالى، أعلمُ). لكنَّ السكاكي لم¬يفعلْ ذلك، وتابعوه أيضاً لم¬يستدلّوا بشئ من ذلك حين نسبوا جميعاً لله -سبحانه وتعالى- أنه هو الذي نَزَّلَ استعظامَ الصحابة منزلةَ إنكارهم هلاكَ الرسول الأعظم ص: قال السكاكي: «نُزِّلَ المخاطبون لاستعظامهم أنْ لايبقىٰ لهم منزلَ المبعدينَ لهلاكِه».(السكاكي، ۱۹۸۳: ۲۸۹) ومعلوم أنَّ قوله: (المخاطبون) يعني (الصحابة) وقال البابرتي: «نَزّلَ اللهُ،سبحانه وتعالى، استعظامَ المؤمنين هلاكَ رسوله، عليه الصلاة والسلام، منزلةَ إنكارهم إياهُ» (البابرتي، ۱۹۸۳: ۳۳۷). والمهم أنَّ هذا الادّعاءَ يحتاجُ إلى دليل علمي يُثبِتُه، ثم إنَّ السؤالَ التالي يبقى بلاجواب، وهو: مَن الذي أخبرَ السكاكي بأنَّ اللهَ ،تعالى، هو الذي قامَ بعملية التنزيل هذه حتى استطاعَ أن يتكلمَ فيها باطمئنانٍ كاملٍ إلى درجةِ أنَّه لم¬يختم كلامَه بالقول: (والله، تعالى، أعلم)! وأضيف إلى كل ذلك أنَّ هولاءِ العلماءَ اختلفوا في الذي نفاه القصرُ في هذه الآية الكريمة، فذهبَ أكثرُهم إلى أنَّ المنفيَّ إنّما هو الخلودُ متابعين السكاكي، وذهب بعضُهم كعصامِ الدين الحنفيّ إلى أنَّ المنفيَّ إنما هو الأُلوهيَّةُ وليس الخلودَ، والمهم أنَّ هذا الاختلافَ إنما يعني أنَّ هؤلاء العلماءَ قداجتهدوا في ذلك، وأنهم لم يملكوا دليلاً على أنَّ اللهَ تعالى وهو الذي قام بعملية التنزيل تمهيداً لنفي الخلود، فاختلافهم هذا نفسُه دليلٌ على عدم امتلاكهم دليلاً يدل على نسبة هذا التنزيل لِلّه سبحانه وتعالى.

فثبت بما تقدم شرحُه أنَّ عمليةَ التنزيل هذه إنما هي أمرٌ اجتهادي رآه السكاكي وتابعه فيه بقيةُ علماء البلاغة بلادليل علمي معتبر، ونسبوه للهِ، تعالى؛ ثم إنهم في

هذا التنزيل لم يُراعُوا مكانةَ الصـحابة «رض» ومنزلتَهم؛ لأنَّ هؤلاء العلماءَ أنزلوهم منزلةَ الجاهلين بأنَّ محمداً رسـولُ الله مع أنهم يعلمون أنه «ص» رسـولُ الله، وهذا ماصَرَّحُوا به، وذكرناه فيماسبق. فنسبوا العلمَ والجهلَ للصحابة «رض» ليستقيمَ ويصحَّ لهم القولُ بأنَّ المنفيَّ هو الخلودُ.

اللهم إلّا أنْ يكون قصدُ هؤلاءِ العلماءِ أنَّ الصحابةَ «رض»كانوا عالمين بأنَّ محمداً «ص» رسـولُ الله. لكنَّ علمَهُم لم يكنْ عن عقيدة راسـخة ويقين ثابت لذلك فعلمهم شبيه بالجهل، فهو كلاعلم، ووجه الشبه خُلُوُّ كلٍّ من المشبه والمشبه به مما تقتضيه العقيدة الراسـخةُ من العمل؛ لأنه إذا كانت عقيدةُ الانسـان غيرَ راسـخةٍ فانَّها لاتدفعُ صـاحبها إلى التفاني في سـبيل تحقيق ماتقتضـيه، أما إذا كانت العقيدة راسـخة، فانها تدفعُ صاحبها إلى التفاني في تحقيق ما تقتضيه.

وأضـيف أنَّ عملية التنزيل هذه التي اعتقدَبها علماء البلاغة إنما هي تشـبيهٌ، قال المغربي: «أصلُ التنزيل تشبيهُ الشئ بالشئ، فلَمّا شُبِّهوا (أي: فلمّا شُبِّهَ الصحابةُ بمَن نفىٰ ذلك...) بالنافي في ذلك ناسـبَ تنزيلهم منزلة المنكرين، فَخُوطبوا بِرَدِّ الإنكار للاعتبار المناسب، وهو الإشعار بأنهم في غاية الاستعظام وغاية الحرص الذي يُنَزِّلُونَ فيه منزلةَ المنكرين».(المغربي، ٢٠٠٣، ج١: ٤٤٧)

وهذا يعني أنَّ علماء البلاغة شـبّهوا المسـتعظمين لموت الرسـول الأعظم «ص»، وهمُ الصـحابةُ، بـالنّافينَ المنكرينَ لموته «ص» بعد وفاته «ص»، فـالمشـبه: المسـتعظمون، وهم الصـحابة، والمشـبه به هم الذين يَنفون ويُنكرونَ موتَ الرسـول الأكرم «ص» بعد وفاته. ولَمّا شـبّهوا الصـحابة المسـتظمين لموته «ص» بالنافين المنكرين له، ناسَـبَ أنْ يُنَزِّلوهم منزلةَ المنكرين لموته «ص»؛ يعني إنَّ هذا التنزيل قدتَمَّ بعد أنْ قطعَ علماءُ البلاغة مرحلتين: المرحلة الأولى: التشـبيه والمرحلة الثانية: التنزيل. إذن فالتنزيل يُقرِّبُ المستعظمينَ لِموتِ الرسولِ «ص» من المنكرينَ لَهُ أكثرَ من تقريبِ التشبيه لهما، فكأنه يجعلُ المستعظمين والمنكرين شيئاً واحداً.

وإنني أرى أنّه لاداعيَ ولاضرورةَ لِكُلِّ هذه التأويلات التي لاتغني، ولاتُسمِنُ؛ لأنَّ رَأْيَنا الذي ذكرناه في الجهة الثالثة يُغنينا عن كلِّ تلك التأويلات.

النتائج

١-أنَّ المنفيَّ بالقصر في الآية الكريمة المذكورة ليس هو الخلود.

٢-أنَّ المنفيَّ الحقيقيّ هو السحر و الجنون و ادّعاء النّبوَّة الذي عبّرتُ عنه بالكذب.

٣-أنَّ عملية تنزيل الصحابة المستعظمين لموت الرسول الأكرم «ص» منزلةَ المنكرين لموته؛ أي: منزلة المعتقدين بخلوده، إنّما هي عملية تأويلية بعيدة عن الواقع.

٤-أنَّ نسبة هذا التنزيل للهِ -تعالى- وأنَّه -سبحانه- هو الذي قام بعملية التنزيل، أنّما هي نسبةٌ تأويلية عارية عن الدليل العلميّ.

٥-أنَّ استعظام وفاة الرسول الكريم «ص» إنّما حصل بعد وفاتِه «ص».

٦-أنَّ الذي استعظم وفاة الرسول العظيم «ص» شخص واحد أو شخصين و ليس جميع الصحابة.

٧-أنَّ سببَ نزول الآيات المذكورة هو معصية الصحابة الرماة لأمر الرسول الكريم «ص» في واقعة أُحُدٍ؛ لأنهم تركوا مواقعهم التي أمرهمُ الرسول الكريم «ص» بالثبات فيها، وعدم تركها حتى في حالة الانتصار، ثم فرار أكثر الصحابة.

٨-أنَّ المقامَ الذي ذكره هؤلاء العلماء لايمكننا الأخذُ به، و إنما المقامُ هو سببُ نزول هذه الآيات الكريمات.

٩-أنَّ الاعتبار المناسبَ الذي ذكروه غير صحيح؛ لأنه لايناسبُ المقام الذي صرَّحوا به واعتقدوه، وإنما الاعتبار المناسب هو مجئ الآية الكريمة بالقصر.

١٠-أنَّ التفكّرَ والتدبُّرَ والتأمُّلَ بالقَدَر المطلوب مع امتلاك النظرة الشاملة لجميع جوانب الموضوع يحمي الدارسَ من الوقوع في التوهُّم والزلل و الخطأ والتقليد

الأعمى، ويفتح أمامَهُ آفاقاً جديدةً من العلم الصـحيح و يُؤَهِّلُهُ للعثور على شـئ مما تركه الأولُ للآخرِ في موضوع البحث.

۱۱-أنَّ البحثَ البلاغيَّ يجبُ أنْ يُجَرَّدَ ويُنَقَّىٰ من كثير من المصـطلحات و الأذواق المنطقية الصِّـرفة الجافَّة، وأنْ يَتَّسِـمَ بالذوق البلاغي والأدبي الأصـيلين كما فعل عبدالقاهر الجرجاني في بحوثه البلاغية وذلك لتعودَ الحياةُ الأصـيلة إلى هذه البحوث، ولنسمو نحو سماء المعاني القرآنية الرفيعة المعجزة.

الهوامش

۱. (أي: نَزَّلَ اللهُ تعالى- الصـحابةَ لاسـتعظامهم موتَ الرسـول الأكرم «ص» منزلةَ المعتقدين بخلوده؛ يراجع شـرح التلخيص لأكمل الدين البابرتي: ۳۳۷ وقال عصـام الدين الحنفي: " نُزِّلَ استعظامُهم هلاكَهُ منزلةَ دعوىٰ أُلُوهِيَّتِهِ...واعتقادُ الأُلُوهِيَّةِ يُنافي الرسالةَ" الحنفي، ۲۰۰۱: ۵۵۹)

۲. قوله: فكانه استبعدَ رسالتَه يعني فكأنه استبعدَ أنَّ محمدا «ص» رسول الله حقاً وصدقاً.

۳. أي: إنَّ الآية ردّت إنكار الصحابة لموت النبي «ص».

۴. المستعظم: هو موت النبي «ص»: أي: ردّا لهم عمّا عسى أن يؤدي استعظامهم الموت إلى نفي الموت.

۵. بعضهم: أي: بعض الصحابة، و ذكر البخاري: أنه عمربن الخطاب (البخاري،ج۲: ۲۹۱؛ ج۳: ۹۵)

المصادر

-أحمد بدوي، أحمد (۱۹۵۰م)، ***من بلاغة القرآن***، القاهرة: دار النهضة مصر للطبع والنشر.

-ابن هشـام (المعافري)، عبدالملك أبو محمد (بلاتا)، ***السـيرة النبوية***، تحقيق و شـرح مصـطفى السّقّا و آخرين، طبع مؤسسة علوم القرآن.

-البابرتي، كمال الدين محمد بن محمد (۱۹۸۳م)، ***شـرح التلخيص***، تحقيق الدكتور محمد مصطفى رمضان صوفية، الطبعة الأولى، طرابلس: المنشأة العامة للنشر و التوزيع.

-بسيوني (فيود)، عبدالفتاح (۲۰۰۸)، ***علم المعاني***، دراسة بلاغية و نقدية لمسائل المعاني، الطبعة الأولى، القاهرة: مؤسسة المختار للنشر و التوزيع.

-البخاري، محمد بن إسماعيل (بلاتا)، ***صحيح البخاري***، لبنان: دارالمعرفة.

- الخطيب التبريزي (۲۰۰۷م)، ***شرح ديوان أبي تمام***، قدّم له و وضع هوامشه و فهارسه راجي الأسمر، بيروت: دارالكتب العربي.
-التفتازاني، سعد الدين (بلاتا)، ***شرح المختصر***، تحقيق عبدالمتعال الصعيدي، طبع إيران: قم.
-الجرجاني، عبدالقاهر (۱۹۷۸م)، ***دلائل الإعجاز***، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، لبنان: دار المعرفة.
-الحنفي، إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين (۲۰۰۱م)، ***الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم***، تحقيق و تعليق اليكتور عبدالحميد هنداوي، الطبعة الأولى، لبنان: دارالكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون.
-الخطيب القزويني، جلال الدين أبوعبدالله محمد بن سعد الدين (۱۹۸۵م)، ***المعاني و البيان والبديع***، الطبعة الأولى، لبنان: دار الكتب العلمية.
----------(۱۹۹۳م)، ***المعاني و البيان و البديع***، شرح و تعليق محمد عبدالمنعم خفاجي، الطبعة الثالثة، مصر: المكتبة الأزهرية للتراث.
-الدسوقي، محمد بن محمد عرفة (بلاتا)، ***حاشية على شرح سعد الدين التفتازاني***، طبع أسطنبول.
-دويدري، محمى هاشم (۱۹۷۰م)، ***شرح التلخيص***، الطبعة الأولى، دمشق: منشورات دار الحكمة.
-الرازي، فخر الدين (بلاتا)، ***التفسير الكبير***، الطبعة الثانية، طهران: دار الكتب العلمية.
-الزجاج، أبي إسحق إبراهيم بن السّرِيّ بن سهل (۱۹۷٤م)، ***معاني القرآن و إعرابه***، تحقيق عبدالجليل عبده شبلي، الهيئة العامّة لشؤن المطابع الأميرية.
-الزمخشري، جارالله محمود بن عمر، (بلاتا)، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، طبع إيران.
-السبكيّ، بهاء الدين (۲۰۰۳م)، ***عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح***، تحقيق الدكتور عبدالحميد هنداوي، الطبعة الأولى، لبنان: المكتبة العصرية.
-السّكاكيّ، أبي يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن علي (۱۹۸۳م)، ***مفتاح العلوم***، ضبطه و كتب هوامشه نعيم زرزور، لبنان: دارالكتب العلمية.
-الصعيدي، عبد المتعال (۱۹۹۹م)، ***بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة***، مصر: مكتبة الآداب.
- ---------- (۱۹۹۱م)،البلاغة العالية.مصر: مكتبة اللآداب.
-الطّبرسيّ، الفضل بن الحسن (۱۹۹۸م)، ***مجمع البيان في تفسير القرآن***، تحقيق السيد هاشم

الرسولي المحلّاتي و السيد فضل الله اليزدي الطباطبائي، الطبعة الثانية، لبنان: دارالمعرفة.
-الطَّيِّبيّ، الحسين بن محمد بن عبدالله (۱۹۹۱م)، ***التبيان في البيان***، الطبعة الأولى، لبنان: دار البلاغة.
- ----------(۱۹۸۷م)، ***التبيان في علم المعاني و البديع و البيان***، تحقيق اليكتور هادي عطية مَطر الهلاليّ، الطبعة الأولى، لبنان: عالم الكتب.
-الفراء، أبي زكريّا يحيى بن زياد (۱۹۸۰م)، ***معاني القرآن***، تحقيق أحمد يوسف نجاتي و محمد علي النجار، مصر: الهَيئة المصرية العامَ
-قلقيلة، عبده عبدالعزيز (۱۹۹۲م)، ***البلاغة الاصطلاحية***، الطبعة الثالثة، مصر: دارالفكر العربي.
-المغربي، أبى العباس أحمد بن محمد ابن محمد بن يعقوب (۲۰۰۳م)، مواهب الفَتّاح في شرح تلخيص المفتاح، الطبعة الأولى، لبنان: دار الكتب العلمية.
-المراغي، أحمد مصطفى (۱۹۸٤م)، ***علوم البلاغة***، البيان والمعاني والبديع، الطبعة الثانية، لبنان: دارالقلم.
-الميداني، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (۱۹۹۲م)، ***مجمع الأمثال***، لبنان: المكتبة العصرية.
-الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد النيسابوري (۱۳٦۲ه ش)، ***أسباب النزول***، لبنان: دار الكتب العلمية، طبع إيران: قم، مطبعة أمير.

sources

Ahmad Bedoui, Ahmad (1950 AD), I Balaghi al -Qur'an, Al -Qahari:-
-Ibn Hisham (al -Maqafari), Abdul Malik Abu Mohammed (Balata), al -Siri al -Nubui, research and description of Mustafa al -Saqqa and the last, the institute of al -Qur'anic sciences.
-Al -Babarati, Kamal al -Din Muhammad ibn Muhammad (1983), Description of Al -Talakas, Research by Muhammad Mustafa Ramadan Sufi, al -Taba'i al -Awli, Tripoli: Al -Mena'i al -Lanshar and al -Tawzi.
-Many (Fayyods), Abdul Fattah (2008), Alam al -Ma'ani, Draghi and Criticism of Lamsa'il al -Ma'ani, al -Taba'a al -Awli, al -Qahir: Al -Maktar Institute of Lennashar and al -Tawzi.
Al -Bakhari, Muhammad ibn Ismail (Belata), Right Al -Bakhari, Lebanon:-
-Al -Khattib al -Tabrizi (2007), Description of the Divan Abi, Grade and the Status of the Hoomsheh and Fahrshah Raji al -Sasr, Beirut: Dar al -Kutb al

–Arab.
-Al -Taftazani, Saad al -Din (Balata), Commentary by al -Maktasr, Research by Abdul Mattal al -Sayyidi, Iran: Qom.
-Al -Jajjani, Abdul Qahir (1978), The Reasons of Al -Ajaz, the Research of Al -Sayyid Mohammad Rashid Reza, Lebanon:
-Al -Hanafi, Abraham ibn Muhammad ibn Arabshah Asam al -Din (2001), Al -Tawwal, the bitter description of the Muftah al -Alum, the investigation and suspension of Al -Abdul Hamid Handavi, al -Taba'ah al -Awli, Lebanon: Dar al -Kutb al -Umayyah, Muhammad Ali.
-Al -Khattib al -Qazvini, Jalal al -Din al -Baqdullah Muhammad ibn Sa'ad al -Din (1985), al -Ma'ani and al -Bayyan Vali, al -Ta'ba al -Awli, Lebanon:
----------(1993), Al -Mawani and al -Bayyan and al -Bada'i, Commentary and Suspension of Muhammad Abdul Mansam Khafaji, al -Taba'a al -Tha'i, Egypt: Al -Maktaba al -Zahr al -Lattar.
-Al -Basuqi, Muhammad ibn Muhammad Arafahi (Balata), Ali's Commentary on Saad al -Din al -Tafazani, Nature of the Board.
-Davidi, Mohammed Hashim (1970 AD), Description of Al -Talakasi, Al -Taiba al -Awli, Damascus: Heads of Al -Hakami.
-Al -Razi, Fakhr al -Din (Balata), Al -Tafsir al -Kabir, al -Taba'a al -Thani, Tehran: Dar al -Akab al –Umayyah.
- Al -Zajaj, Abi al -'Abbah ibn al -Sari ibn Sahel (1974 AD), Maqi al -Qur'an and Arab, Abdul Jalil Abdul Shabali, Al -Aami al -Aami al -Mutihad al -Amiri.
Eskhari, Jarallah Mahmoud ibn Omar, (Balata), Al -Kashf al -Tanzil, the nature of the Iranians.
-Al -Sabaki, Baha'i al -Din (2003), Bride of Al -Fayyat Fayyah, Investigations of al -Daktar Abdul Hamid Handavi, al -Taba'ah al -Awli, Lebanon: Al -Maktaba al –Asr.
-Al -Saqkaki, Yaqub Yusuf ibn Abi Bakr Muhammad ibn Ali (1983), Mufti al -Alum, the scope and books of the Humasheh Naeem Zarzor, Lebanon: Dar al -Kutb al -Alimi.
-Al -Sayyidi, Abdul Mattal (1999), Baghi al -Jawzah al -Mafaqah in the Science of Al -Balaghi, Egypt: School of Al -Adab.
- ---------- (1991), Al-Balagha al-Alia. Egypt: Muqatah al-Ladab.
-Al -Tabrizi, al -Fazl ibn al -Hassan (1998), Assembly of Al -Bayyan fi al -Qur'an, al -Sayyid Hashem al -Rasuli al -Malati, and al -Sayyid Fazlullah al -Tabataba'i, al -Taiba al -Tabati, Lebanon:
-Al -Taibi, al -Hussein ibn Muhammad ibn Abdullah (1991 AD), al -Tabian al -Bayyan, al -Ta'ba al -Awli, Lebanon: Dar al -Balaghi.

- ----------(1987), Al -Tabian al -Ma'ami and al -Badiyyah and al -Bayyan, Hadi Hadi's research, al -Ta'ba al -Awli, Lebanon:
-Al -Fara, Abi Zakari Yahya bin Zayd (1980 AD), Maqi al -Qur'an, Research by Mohammad Yusuf Nejati and Mohammad Ali al -Najjar, Egypt: Al -Masriyah al –Aami
-Ghaqili, Abdul Abdulaziz (1992 AD), al -Balaghi al -Aqa'i, al -Taba'a al -Thati, Egypt: Dar al -Fakr al -Arabi.
-Al -Maraghi, Ahmad Mustafa (1984), Al -Balaghi Science, Al -Bayyan Valmani Vedi, al -Taba'a al -Thani, Lebanon: Dar al -Qalam.
-Al -Maghribi, Abbas al -Abbas ibn Muhammad ibn Muhammad ibn Ya'qub (2003 AD), the Prophet al -Fatih al -Muftah, al -Ta'ba al -Wali, Lebanon:
-Al -Muhammad ibn Muhammad ibn Ahmad ibn Abraham al -Naqabouri (1992), the Assembly of Al -Alam, Lebanon: Al -Maktaba al -Asri.
-Al -Haddi, Abolhassan Ali ibn Ahmad al -Naqabouri (1362 AH), Sabab al -Nizul, Lebanon: Dar al -Akab al -Umayyah, Iran: Qom, Amir.

Abstract

Discussing the theory of Al-Sakkaki and its followers in the interpretation of the palace in the saying of the Almighty:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا...) To(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)/(Al-Imran ١٤٦-١٤٤)

Mohammad Ebrahim Khalifa Shushtri*

The title of this article is (Discussion and Criticism) and the purpose of the discussion and criticism is Abu Yaqub Al-Sakkaki, who died in the year 626 AH, the author of the book Miftah al-Ilam, and he is one of the prominent scholars of al-Balagha, and the reason behind his discussion and criticism is his opinion on the interpretation of the Qur'an in the saying of the Almighty (And what is Muhammad but a Messenger) (Al-Imran/144) where he said: "And among those mentioned in the revelation on Qasr Al-Ifrad is the saying of the Almighty: (And what is Muhammad but a Messenger); the meaning is that Muhammad is limited to the message so that he does not exceed it to the distance from destruction. Manzel al-Mubadin Lehlakeh(Al-Sakkaki.1983: 289)

This speech means that Al-Sakaki is related to Allah Almighty, that He is the one who sent down the Companions, the status of those who believe that the Greatest Messenger (PBUH) is immortal, therefore, Allah Almighty limited him to the message, and denied him immortality, and he followed this opinion, according to the knowledge of all the scholars of rhetoric who came later to this day. And when I carefully looked at his opinion, I found that disputing it, criticizing it, and giving the right opinion is a very important and necessary matter; Because this interpretation and this interpretation are closely and directly related to the interpretation of the Qur'anic verses, which include this short sentence, and their understanding is supported by the evidence of the court, also knowing that when Al-Sakaki attributes it to Allah - the Exalted - it is a decisive relation, and he does not follow it with a sentence like this sentence: (By God - Allah knows best). And what I have done is that your view of this mansion from another angle is closer to the truth of the matter based on the reason of the descent, and to the science of meanings and to the historical reality. The appropriateness, and the relationship between rhetorical research in the Holy Qur'an and Tafsir.

The results I reached were that Allah, the Exalted, sent down the status of the Companions to the believers after the death of the Holy Prophet (PBUH) and that attributing this to him - Exalted be He - is without evidence, but it is an interpretive process, perhaps the purpose of which is to subject the verse to the rhetorical rule. : magic, madness, and falsehood (claims of prophethood), but it is not eternal And this is the case - according to the information - I disagree with Al-Sakaki's opinion and criticize it, and give the opinion of the previous one

Keywords: Discussion and Critique, Al-Sakaki theory, Al-Qasr

* Professor of Arabic Language and Literature, Shahid Beheshti University.
m-khalifeh@sbu.ac.ir